دروس من الهجرة

للدكتور / أحمد محمد الخراط

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد الأمين ...

يتعامل كثير من المسلمين اليوم مع السيرة النبوية على أنها أحداث وذكريات جرت مع قائد الدعوة ثم عطلها التاريخ وتتابع الأيام عن العطاء ، وذلك شأن كل قديم عندهم ، تنظر إليه النفس وتقول : لا حاجة لي به ، فأين نحن منه في القرن العشرين وقد تغيرت الدنيا وها هو ذا التطور يكتسح كل شيء . والحقيقة أن سيرة رسول الله ﷺ جديرة بأن تكون سيرة حياة لا تنقطع في عبرها وآفاقها ومعانيها ودروسها ؛ وذلك لأن الرسول ﷺ عاش حياة بشرية بكل ما في كلمة البشرية من دلالات . وكأن رسول الله بتوجيه من السماء كان يقصد قصدا إلى هذا المعنى : « هل كنت إلا بشرا رسولا » فما كان في تصرفاته وسلوكه وتعامله مع أصحابه وأعدائه إلا بشرا عاديا ولكنه النموذج الذي يهدف إلى إعلاء الفرد المؤمن في نظرته إلى الحياة وأفعاله في المجتمع ، كما يهدف إلى تربية معينة تنبع من مدرسة معينة .

أيها الإخوان :

لقد كان لنا في سيرة رسول الله ﷺ كنوز حية كل الحياة يجدر بالدعاة أن يقتبسوا منها وهم يعيشون في البيت والجامعة والمجتمع والأمة ، وهى ذخر لا ينفد عطاؤه لأولئك الذين يريدون فعلا أن يتخذوا من رسول الله قدوة لهم . ولكن ليست قدوة الكلام والنظرية وإنما هى قدوة العمل والتطبيق . بمعنى أنهم يتلقون منه لا ليتمتعوا وهم يقرؤون السيرة ، وإنما ليجعلوا حياتهم اليومية امتدادا لهدى تلك السيرة . وحبذا لو غيرنا جميعا اليوم موقفنا من طريقة التلقي التى نحن عليها ، فندرسها لتحيا في أعماقنا في كل ما نصادفه ويصادفه الدعاة في كل مكان وهم يصطرعون مع الطغاة .

وفي هذه الأمسية سنقضي معا لحظات مباركة إن شاء الله مع أحداث الهجرة إلى المدينة . وسوف أمضي إلى أبعادها لأقتبس منها بعض الدروس والمعاني . ولن أدرسها لكم لتكون في أذهانكم مثالا يقرب من الخيال ، كما أنني لن أعرضها لكم حدثا قديما تنشدون فيه متعة الفكر ، أو تاريخا يمسك بالأحداث من أولها حتى إذا وصل إلى خاتمتها مضى لشأنه .

الغاية من الهجرة :

« والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » إن أهم شيء في حدث الهجرة هو الغاية منها .

فهل هي سفرة عادية يقوم بها رجل دعوة من مكان إلى مكان . إنها ليست كذلك ، بل هي منعطف جديد لتاريخ البشرية كلها ، لأنهـــا بداية الامتداديين : الأفقي والداخلي لدعوة الله في الأرض داخل الجزيرة العربيـة وخارجها فالمعنى البعيـد لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » بدأت الآن ثماره وآثاره . وها هي ذي البشرية كلها ظامئة أشد الظمأ لمطلع النور ، المظلوم والضعيف وطالب الهدى وناشد تحقيق إنسانية الإنسان ، ولقد حققت الهجرة هدفا من أكبر أهداف دين الله وهو الحكم بما أنزل الله في المجتمع ، وأيقن رسول الله ﷺ أن الإسلام دين حياة فكان يود لو يتعرف على البيئة المناسبة التي تستطيع فيهـا معطيات الدين أن تتنفس بأمان وينفذها رجال يخافون الله ، لقد حرص رسول الله على طاقة الإيمان أن لا تتبدد في غير موضعها الذي خلقها الله من أجله فتحرك إلى مكان جديد ليهيىء لهذه الطـاقة دولة تهدف إلى تحقيـــق غاية الإسلام ومعروف أمر الطائف حين وفد عليها رسول الله بنفسه ونشد فيها البيئة الصالحة ولكنه صادف العنت والكبر ولم يصادف الحوار الهادىء الجاد الذي يطمح إليه فقفل عائدا إلى مكة ليدأب في نضال جديد وكان يحرص أشد الحرص على مقابلة القبائل العربية التي تنزل في منازل بعيـدة عن مكة التي هجره أهلهـــا وحاربوه بكل ما يخطر على بال الإنسان وقتذاك ، ثم نراه يرسل الشاب المؤمن مصعب بن عمير إلى المدينة لينشط بتعليم المؤمنين فيها الإسلام والقرآن ، ولدراسة البيئة عن كثب ، والعمل على توسيع أفق القاعدة الإيمـانية ، ثم التقى رسول الله بوفد من الأوس والخزرج اليثربيين وبايعهم بيعة العقبة الثـانية

على نصرة الدعوة في المنشط والمكره . ثم تصل الأنباء الطيبة من المدينة بأن الإسلام قد فشا في بيوتها كافة ، مما جعل رسول الله يفكر في نقل مركز القيادة إلى المدينة لينتقل هناك من دائرة تربية الإنسان المؤمن إلى دائرة الدولة الإسلامية .

أيها الإخوان :

لقد أنزل الله الإسلام أصلا ليحكم الأفراد والمجتمعات ولم ينزله ليبقى في الفراغ معطلا في الأوراق الصفراء والبيضاء تتناقله أفواه علمائه وليس له قوة ينطلق فيها ويعبر بها تعبيرا حيا بعيدا عن الافتراضات والنظريات . لقد تضمنت الرسالة هدف تحطيم عبادة البشر للبشر وإخلاص العبادة لله وحده ، وهذا يستلزم قيام مجتمع يطلع عليه العالم كله ليعرف ما معنى الحكم بما أنزل الله وما معنى لا إله إلا الله. صحيح أن رسول الله قد أنهى بالهجرة ملحمة صعبة عانى منها هو وأصحابه بسبب موقف الطاغوت القرشي من الدعوة ، وصحيح أنه قد نفس عن أصحابه وأصبح لهم بالمدينة مجتمع يعيشون فيه بعز وأمان ولكن هذا من نتائج الهجرة وليس من مقاصدها الرئيسية ، إنما الهدف هو التخطيط لبناء القاعدة المستقرة التي يحكمها القرآن الذي جاء ليحكم جميع مناحي الحياة . ورسول الله لم يحسب حسابا للنتائج الأرضية المادية التي سيخسرها المسلمون حيث سيفقدون أموالهم وديارهم وعشيرتهم وبلدهم وذلك ليعطي الدعاة في كل زمان ومكان درسا بارزا بأن هذه العقيدة هي أغلى ما يملكه الفرد المؤمن ولقد أدرك صحابته ذلك حق الإدراك ، فها هو ضمرة

ابن جندب الصحابي الذي أثقله المرض العضال يهدر بكلمات لها معان قيمة عند الدعاة : « لا عذر لي في مقامي بمكة » فأمر أهله فخرجوا به ولكن الأجل عاجله ، فتوفي في التنعيم خارج حدود مكة ونزل قوله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

وها هو ذا صهيب يهاجر إلى المدينة وفي طريقه اعترضته قريش تريد أن تفتنه فقال لهم « أرأيتم إن جعلت لكم ما لي أتخلون سبيلي » قالوا : نعم . وكأن صهيبا قد اهتدى إلى لب الحقيقة ، إلى حقيقة المال أمام الجنة .

التخطيط المناسب :

والداعية المسلم رجل يعتمد على التخطيط الدقيق في تحركاته وسلوكه . فهو إن صح عزمه على أمر يختص بدعوته نراه يدرس أبعاده ونتائجه وآثاره . صحيح أن رسول الله يرتبط بالسماء ويتلقى من الوحي وأن الله يقول فيه : « والله يعصمك من الناس » فهو يستطيع أن يهاجر علنا ويحميه الله ، هل كان عمر بن الخطاب أوفر شجاعة منه ﷺ حين هاجر علنا ، وهل كان رسول الله يضن بالتضحية بالروح ؟ إن أسباب الأرض لا يغفل عنها رسول الله وذلك ليعطي الدعاة عبر التاريخ دروسا في أهمية التخطيط لدى التحرك الدعوي . فالداعية رجل يتوكل على الله في مواجهته للجاهلية والطاغوت . ولكنه في الوقت نفسه يعد للأمر عدته . ويحسب الحساب . ويتصور النتائج ويعدل . ويطور في خطته وتحركه ليصل

إلى الهدف باطمئنان واستقرار وثبات فيكسب بذلك ما نشده ويحقق شخصية متزنة هادئة . وقد توضح مصداق ذلك في مظاهر عديدة منها : —

١ — الكتمان :

كان أبو بكر قد ابتاع راحلتين وكان يطمع أن يهاجر مع رسول الله ولم يكن يعلم عن موعدها شيئا ، روى البخاري : « وتجهز أبو بكر مهاجرا فقال له رسول الله ﷺ : « على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي » وقبل الهجرة بيوم واحد وفد رسول الله على أبي بكر وقت الهاجرة ولم يكن رسول الله يزور أبا بكر في هذا الوقت قبلا وقال له بصريح العبارة : « أخرج من عندك » واتفق معه على المراحل القادمة بعد أن تلقى الإذن بالهجرة . وهذا الكتمان كان طريقة المسلمين المهاجرين إلى المدينة زرافات ووحدانا ، وحين طلبت قريش رسول الله ذهب أبو جهل إلى بيت أبى بكر فخرجت له أسماء ابنته . وسألها عن أبيها فقالت : لا أدري ، فما كان منه إلا أن لطمها على خدها فرمى بقرطها . وفي حديث سراقة الذي اعترض الزحف الطاهر في منتصف الطريق إلى المدينة قال له رسول الله : اخف عنا ثم ان صحبة أبي بكر لرسول الله كانت تثير تساؤل التجار في الطريق وكانوا يعرفون أبا بكر الغادي والرائح عليهم في تجارته فيسألون عن رفيقه فيقول : يهديني الطريق .

أيها الإخوان :

إن الطاغوت حريص على سلطانه وهيمنته وهو لن يرضى عن أية محاولة لتحطيمه وإعلان شأن لا إله إلا الله ، وللدعاة في رسول الله أسوه حسنـــة إذا أرادوا أن يتحركوا للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولتطهير الساحات من أدران الكفر ، وإرساء قواعد الحكم وفقا لما أنزل الله ودحض حجة كل رجعي جاهلي يحكم بغير ما أنزل الله .

٢ ــ الاختصاص وتوزيع الأدوار :

حرص رسول الله على تجديد المواقف والأدوار حتى لا تتوزع الطاقات على ثغرة واحدة وتهدر على ثغرات أخرى وإنما يتخذ التحرك طريقا منظما من أفراده . وهذا يدفع بالخطة إلى الأمام من ناحية ، ويجعل النفس مستقرة مطمئنة هادئة وهي تستمر في التنفيذ . وقد اتضح توزيع المواقف والاختصاص في مظاهر عديدة ، منها ما كان يوم الهجرة حيث كانت مهمة عبد الرحمن بن أبي بكر بأن يقضي يومه في مكة يختلط مع رجالات الشرك فيها يتلقط أخبارهم ومؤامراتهم وكيدهم ليصل بها ليلا إلى ركب الإيمان المهاجر المتربص في غار ثـــور ثم يدلج من عندهما بسحر لاستئناف مهمته فيكون كأنه بات مع قريش ، ويذكر المؤرخون أن عبد الرحمن كان ثقفا لقنا (أي حاذقا سريع الفهم) فهو إذاً الرجل المناسب في المكان المناسب ،

ويقوم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر بمهمتين ، الأولى : أن يزيل آثار أقدام عبد الرحمن بن أبي بكر بالماشية التي يرعاها ، والثانية : أن ينتخب شيئا من حليب الغنم ليوصله إلى الغار . أما أسماء فكانت تجهز المؤونة من طعام وشراب ، وتهيئه في سفرة لتوصله إلى الغار في وقت مناسب ، وعلي بن أبي طالب يكلف بمهمتين: الأولى الإيهام فقد قال له رسول الله : نم على فراشي فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، وذلك في ليلة الهجرة ، وأما المهمة الثانية فسوف نكشف عنها بعد قليل . هذا - بالإضافة إلى مهمة أريقط دليلا في الطريق ، وفي المرحلة التالية مرحلة ما بعد الغار يبقى مع الركب عامر بن فهيرة ويأخذ مكانه خلف أبي بكر ليخدمهما في الطريق .

وقبل أن أنتقل إلى الفقرة التاليـــة ينبغي أن أشير إلى دور الشباب في نجاح الدعوات وذلك لما يملكون من الاندفاع الجاد في تضحياتهم وإذا استعرضنا الأسماء اللامعة في تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أن معظمهم شباب استعذب الألم والموت وما أحرى شبابنا اليوم أن يدركوا ما تحتاج إليه دعوتهم فيجعلوا نظرتهم للكون امتدادا لشباب العصر الأول .

٣ ــ التوقيت المناسب :

لم يهاجر رسول الله ﷺ إلا بعد أن اطمأن على هجرة أصحابه . لقد كان يستطيع أن ينتهز الفرصة المناسبة ويهاجر قبلهم ، ولكنه من ناحية يمثل قائد الدعوة الذي يريد أن يطلع بنفسه على نتائج قراره الذي اتخذه في الهجرة سواء في

مكة أم في المدنية ، ففي مكة قد يكون ثمة أخطار وراء الهجرة فلابد أن يتعرض لها بنفسه ولا يطيق أن يترك المسلمين يتجرعون نتائج قرار اتخذه ، وفي المدينة يريد أن يعرف كيف استقبل الأنصار اشارة الرسول للمهاجرين بالهجرة إلى ديارهم . ومن ناحية ثانية أدرك رسول الله جسامة المهمة التي سيبدؤها في المدينة فلابد أن يكون لها سمة الأمن قبل دخولها حتى لا تتكرر مأساة العنت القرشي ومن هنا لم يستعجل السفر إليها إلا بعد أن مهد لها بأشكال عديدة فقد أرسل سفيره مصعب بن عمير قبل فترة طويلة واستقبل وفود الأوس والخزرج وعرف إمكاناتهم ودائرة هيبتهم واطمأن إلى أن الإسلام هناك قد غزا كل بيت ، كل أولئك دفعه إلى تأخير هجرته إلى أن دخلت مرحلة التوقيت المناسب ، مرحلة بدء العطاء المبارك للدولة الإسلامية .

٤ ـ اليقظة في الوقت العصيب :

لقد كان رسول الله في هجرته مثالا للداعية اليقظ في الوقت العصيب . فهو صاحب فكرة ودعوة ، وهذه المسئولية تملي عليه أن يكون في حيطة تامة لمضمون الدائرة التي هو فيها من دون أن يغفل عن جانب من هذا المضمون مهما كان الوقت صعبا شائكا والمرحلة دقيقة حرجة . وما أحرى الدعاة أن يستقوا هذا الجانب من حياة رسول الله ﷺ فلا يفرطون في شيء من دعوتهم بحجة أنهم مشغولون في جوانب أخري أهم . إن حمل الدعوة وتنفيذها يفرض عليهم الانتباه في الأوقات كافة .

ومن مظاهر تلك اليقظة الحرص على استمرار المعطيات الإسلامية فقد عرف رسول الله بالأمانة في قومه فكانوا يتركون عنده الودائع والأمانات الثمينة ، حتى إذا دنا الرحيل كلف عليا بالبقاء في مكة لرد الودائع إلى أصحابها فكان علي يطوف بالناس بعد هجرة رسول الله ويسلمهم ما بحوزة رسول الله من ودائع . إن عليا ببقائه في مكة أثبت للدنيا أن الرجل الذي أطلقوا عليه الساحر الكذاب المجنون لا يزال ذلك الرجل الأمين العفيف الذي عرفوه قبل البعثة وبعدها . كان رسول الله ﷺ يستطيع أن يستولي على هذه الودائع ولكن المسلم نظيف يأبى الغدر والخداع وليس عنده ازدواجية في شخصيته . أمين عفيف تارة وغير ذلك تارة أخري وفي ذلك دليل على أن عدونا يعرف في أعماق نفسه أن الداعية مستقيم وأنه خير منهم سيرة ، وبعد ثلاثة أيام من إقامة علي بمكة أدى الودائع بعد أن طاف بالقوم ثم لحق برسول الله . وفي ساعة رحيل المهاجرين نقف لنستمع إلى حوار جرى بينهما . فقد قدم أبو بكر لرسول الله أفضل الراحلتين اللتين ابتاعهما لغرض الهجرة فأجابه الرسول : إني لا أركب بعيرا ليس لي. يقول أبو بكر: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي . يقول الرسول : لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به ، يقول أبو بكر : كذا وكذا ، يجيبه الرسول قد أخذتها به . وعلق الإمام السهيلي على هذا الحوار بقوله : إنما ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما . أجل أيها الإخوان لا تقولوا : هل هذا وقت السؤال وعن مصدر الراحلتين وثمن كل واحدة.

إنها فترة يكاد فيها الرجلان يتخطفان من الأرض ! ! ولكنه رسول الله يعرف ما عليه من واجبات وتبعات حتى في الوقت العصيب .

* * *

الحب العميق والأدب الجم :

تتجلى في مناسبة الهجرة أروع المظاهر المضيئة في حب الصحابة لرسول الله ﷺ . وكيف لا ؟ وهو قائد دعوتهم وموجه ركبهم نحو الخير والسداد ، والجنود الصادقون لا يرون بأسا في أن يفدوا قائدهم بحياتهم كما فعل علي حين بات في فراش رسول الله ومن يضمن كظم قريش لغيظها فلا تهوي على رأس علي لأنه فعل فعلته . وقبل الدخول إلى الغار قال الصديق : والذي بعثك بالحق لا تدخل حتى أدخله قبلك فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك . وفي أعماق الغار كان المشركون يحيطون بالصاحبين احاطة السوار بالمعصم . بكى أبو بكر قائلا : « والله ما على نفسي أبكي ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره ولننظر في التعبير القرآني الدقيق : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » لم يقل له لا تخف لأن أبا بكر لم يكن خائفا فحزنه على رسول الله شغله عن خوفه على نفسه . وهكذا أعطى أبو بكر مثلا حيا لما ينبغي أن يكون عليه رجل الدعوة الصادق مع قائده حين يحيط به الخطر ، لقد زال تماما من كيانه شيء اسمه الخوف والاشفاق على الحياة . وحين بدأ الزحف الطاهر من مكة إلى المدينة وبعد ثلاثة أيام من المبيت في الغار جهزت أسماء

السفرة والمؤونة فلم تجد لسفرة رسول الله ولا لسقائه ما تربطهما به فشقت نطاقها اثنين وربطت السقاء بواحد والسفرة بواحد ومن هنـــا لقبت بذات النطاقين . إن أسماء أضافت صفحة بيضاء مشرفة للتضحية الجادة ولجهاد المرأة في سبيل الدعوة في عهد رسول الله ﷺ . وفي الطريق الطويل بين مكة والمدينة كان أبو بكر يسير مضطربا مروعا فيمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : يا رسول الله حين أذكر الرصد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك . وتصف أم معبد الخزاعية وهي صاحبة الخيمة التى نزل فيها رسول الله في الطريق تصف مجلس رسول الله فتقول : إن قال أنصتوا له وإن أمر تبادروا إلى أمره .

وحين نزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري كان أبو أيوب في العلو فقال لرسول الله : إني لأكره أن أكون فوقك وتكون تحتي فكن في العلو وننزل نحن ، فقال رسول الله : يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في أسفل البيت . ويقول أبو أيوب : انكسر لنا وعاء فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بلحاف ننشف به الماء ليس لنا غيره تخوفا أن يقطر على رسول الله منه شيء فيؤذيه . وفي بناء المسجد ارتجز الجميع :

لئن قعدنا والنبي يعمـــل لذاك منا العمـــل المضلل

وأمام مظاهر الحب العميق والأدب الجم لا يسعنا نحن إلا أن نتابع هذه المظاهر

بعد رحيل رسول الله ولكن كيف يكون ذلك ؟ هل يكون بالبدعة نبتدعها بحجة أننا نود التعبير عن حبنا وأدبنا ؟ أم يكون بعواطف ثرة وكلام مضمخ بتعبيرات العشق والغرام بحجة أننا نقصد بذلك رسول الله ، أم يكون ذلك بشرك خفي قد يؤدي بنا إلى تعطيل الشعار الذي حارب رسول الله من أجله وهو شعار لا إله إلا الله . إنما يكون ذلك الحب بالحرص الشديد والتتبع الدقيق لسنته وهديه وسلوكه في بيته ومجتمعه ، في حربه وسلمه وتصرفاته دون أن نزيد أو ننقص ، إن حبنا لذلك الرجل القائد يكون باستحضار سيرة حياته حياة العمل والارتباط بالدعوة ، لا حياة الترف والدعة والخلود إلى الأرض .

★ ★ ★

العون الإلهي :

يمر المتتبع لأحداث الهجرة النبوية بأكثر من حادثة جرت مع رسول الله ﷺ ولا يملك أحدنا تفسيرا ماديا أرضيا لها ، ولا نستطيع إلا أن نقول إن الله سبحانه ـ كان يرصد نبيه الكريم بتأييده وعونه « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . روى البيهقي أن قريشا اجتمعت في دار الندوة واتفق رجالها على قتله فأتى جبريل رسول الله ﷺ فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم وأذن له عند ذلك بالخروج . ويضيف البيهقي : خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه ومعه حفنة تراب

فجعل يذرها على رؤوسهم وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه ﷺ وهو يقرأ : « يس والقرآن الحكيم » إلى قوله تعالى : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . ويتابع ابن سعد القصة فيقول : فقال لهم قائل : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمدا . قال : قد والله مر بكم قالوا : والله ما أبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم وخرج رسول الله إلى غار ثور فدخل مع صاحبه وضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها إلى بعض وطلبته قريش أشد الطلب حتى انتهت إلى باب الغار فقال بعضهم : إن عليه لعنكبوتا قبل ميلاد محمد فانصرفوا . ويروي أبو نعيم قصة مروره من بينهم بجانب بيته : « فكان أول من لقيني أبو جهل فعمى الله بصره عني وعن أبي بكر حتى مضينا » ونزل قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (الانفال ٣٠) .

وفي أعماق الغار يروي البخاري شيئا من تأييد الله وعونه لنبيه ﷺ ويروي عن أبي بكر قوله : « لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه » فقال له رسول الله : يا ابا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وفي ذلك نزلت الآية الكريمة : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » أجل أيها الإخوان إن قول رسول الله « إن الله معنا » ينبغي أن يكون شعار الداعية وهو يجاهد في سبيل الله في كل مكان وزمان . ومن ناحية ثانية إن أحداث الغار دليل واضح على صدق

رسول الله في دعوى النبوة فهل نرى مثل هذا الاطمئنان يصدر عن مدع للنبوة . يقول الدكتور مصطفى السباعي : « وفي مثل هذه الحالات يبدو الفرق واضحا بين دعاة الإصلاح وبين المدعين له والمنتحلين لاسمه أولئك تفيض قلوبهم دائما وأبدا بالرضا عن الله والثقة بنصره وهؤلاء يتهاوون عند المخاوف » .

ويروي البخاري ومسلم قصة سراقة ابن مالك فيقول عن أبي بكر : « طلبنا القوم فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك على فرس له فقلت : يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا . قال : لا تحزن إن الله معنا . فلما كان بيننا وبينه قيد رمح أو ثلاثة دعا عليه رسول الله ﷺ فقال : اللهم اكفناه بما شئت فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها فقال سراقة : يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فو الله لأعمين على من ورائي من الطلب فدعا له فانطلق راجعا . وكان سراقة هذا قد طمع في أن يفوز بالجعل (المكافأة) الذي أعلن عنه كفار قريش لمن يحضر محمدا أسيرا أو قتيلا . ويمثل سراقة في هذا المشهد كثيرا من الناس نلتقي بهم في كل مكان وزمان ، هؤلاء الذين يبيعون ضمائرهم واستقامتهم في سبيل رنين الذهب والفضة ، لكن إرادة الله وقفت في جانب الهدف السامي ولم تستجب للرغبة الدنيئة .

ثم يقول رسول الله لسراقة : « كيف بك يا سراقة إذا تسورت بسواري كسرى ، يتحدث معه في ثقة وأي ثقة . ويروي المؤرخون أن عمر لما جيء له في

زمن خلافته بالسوارين دعا سراقة وألبسه السوارين . وهذه القصة إذا عرضناها على موازين الأرض لا نجد لها حلا ، فالرجل مهاجر في طريق طويل أخرجته قريته لا يملك من قوة الأرض شيئا ، يوقع الله بسببه سراقة ثم ينبئه أن سراقة هذا الأعرابي الذي نشأ في البادية سوف يلبس سواري كسري وأين سراقة من كسرى الذي كان له وقتذاك جل مفاتيح العالم . وقصة سراقة دليل واضح على صدق رسول الله في نبوته وأنه مؤيد من الله بالنصر والعون . وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة كانت أوبأ أرض الله فدعا رسول الله : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، واستجاب له ربه فرفع الحمى عن المدينة .

ونحن عندما نقرأ مجمل هذه الروايات نخرج منها إلى أن الباطل مهما انتفخ والطاغوت مهما طغى وعلا فإن السماء لا يقف أمامها شيء إن أرادت أن تنصر المؤمنين مع اعتقادنا الكامل بقوله تعالى : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، وهذا التأييد الإلهي للدعاة لا يمنعهم من القيام بالسعي الحثيث وإلا كان رسول الله قد نام نوما عميقا في سيرته الكريمة التي تتسم بالحركية والدأب المتواصل للوصول إلى الغاية .

* * *

وأخيرا : مرحلة ما بعد الوصول :

ذكرنا أن الإسلام يحتاج إلى مناخ سليم لتنفيذ مضمونه . ويذكر بعض المؤرخين أن الهجرة هي في العرف العسكري نقل مركز القيادة المكاني للوصول إلى الأفضل ومن هنا كانت الهجرة أفقا حاسما من آفاق الدعوة حيث إن الإسلام بعدها سيكون له شأن آخر في القوة والاستعلاء ، حتى إن بعض المؤرخين يعدون فتح مكة استسلاما من جانب قريش وليس فتحا » . وقد قام رسول الله ﷺ أولا ببناء المسجد لتحقيق الرسالة التي بني من أجلها . ويذكر ابن هشام في سيرته أن الأنصار قد حرصوا على أن ينالوا شرف استقبال رسول الله فكان يقول لهم : دعوا الناقة فإنها مأمورة . وفي المكان الذي بركت فيه أمر رسول الله أن يبني المسجد فيه . وللمسجد في الإسلام رسالة ضخمة لأنه في نظر الإسلام منطلق للعلوم وتفرعاتها وحلقها لذلك نجد المسجد عبر تاريخنا يؤدي رسالته العلمية أداء طيبا . والدين الذي يعد طلب العلم فريضة على المسلم يجد في المسجد ما ينشده ، هذا بالاضافة إلى كون المسجد يمثل مركز انطلاق الدعوة وتخطيطها وتحركها ، ففيه تشحن طاقات الأمة وتهيأ للمراحل القادمة ومن هنا كان المسجد في الإسلام دائما حركة تماثل دوي النحل في التلقي والتنفيذ والعبادة والقضاء ، بالاضافة إلى أنه عنوان لعزة المسلمين وقوتهم وتكاتفهم وتجمعهم ، وهذا يتفرع من طبيعة هذا الدين الذي يأبى الاعتزال والسلبيات ويقصد إلى التجمع والتآلف وهو أيضا مؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة والانضباط . ونخرج من هذا

كله إلى أن إسراع الرسول لبناء المسجد له دلالته ، لأن المسجد شأنه في التكامل شأن الإسلام نفسه في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع .

ثم نفذ رسول الله المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكانت فكرة طيبة حققت أروع النتائج التى عرفتها المجتمعات الناشئة وذلك لجعل المجتمع الإسلامي بوتقة تتضاءل فيها روابط الدم والعصبية القبلية التي كانت مشتعلة لتحل مكانها رابطة التآخي الحقيقي . ولقد دفعت هذه الظاهرة مجموع المسلمين إلى الأمام ، فكان المهاجرون ضعفاء بحاجة إلى أن يشعروا بإحساس جديد يعوضهم عما فقدوه . وأريد الآن أن تقفوا معي قليلا لمراقبة هذه الظاهرة ، فقد جاء المهاجرون وهم ما بين شريد وطريد وخال من المال وخال من الولد والأهل فيستقبلهم الأنصار ويقرون فكرة القائد في التآخي الذي ينص على الأخوة الكاملة التى تصل إلى درجة الميراث قبل أن ينسخ القرآن هذا الحكم بآية : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » . كيف يتناسى الفرد مظاهر المادة كلها لولا حرارة العقيدة ، وقد نزل فيهم قوله تعالى : « والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولكن هل قعد المهاجرون كسالى ؟ كلا إن هذا يتنافى مع طبيعة هذا الدين الذي ينشد في أتباعه دائما الهمة والنشاط . روى البخاري أن : عبد الرحمن بن عوف

هاجر إلى المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع فقال له سعد : يا عبد الرحمن إني من أكثر الأنصار مالا وأنا مقاسمك وعندي امرأتان وأنا مطلق احداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، ولكن عبد الرحمن قال له : بارك الله في مالك وأهلك دلني على السوق .

وبعد التآخي سعى رسول الله في توطيد الأمن وهو العنصر الرئيسي لانتشار الدعوة الإسلامية التي تطمح إلى المناخ السليم . إن قريشا لن تتركه في مأمنه لأنها تخاف على تجارتها القادمة من الشام ومن هنا كان عليه أن يهيىء المدينة لمرحلة الدفاع عن الدعوة . وبمعنى آخر إعداد الجبهة الداخلية ويتطلب هذا دراسة المجتمع المدني الذي تألف من المسلمين واليهود والمنافقين أما المسلمون فقد وجدنا كيف ذابت عناصرهم في بوتقة العقيدة ولم يعد هناك ثارات وإحن جاهلية بين الأوس والخزرج بعد أن قال رسول الله عنها : « دعوها فإنها منتنة » . أما اليهود فقد كانوا ذوي قوة وتكاتف متمثل في ثلاث قبائل ، وإعلان الحرب عليهم من أول يوم وصل فيه رسول الله إلى المدينة ـ أمر ليس من مصلحة الدعوة ، فهم أصحاب كتاب وقد يفيد الدعوة أن يعقد رسول الله معهم حوارا هادئا يفند فيه مزاعمهم ويقارع الحجة بالحجة ، وقد نزل فيهم قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ومن هنا كان لابد أن يضمن رسول الله جانب سكوت اليهود عن انتشار الدعوة فلا يفتح جبهة جديدة في الصراع والدولة الإسلامية لم ـ تقو بعد ، وأية محاولة لضربهم ستجعلهم يشيعون

بين العرب أن محمدا صاحب شر وقتال وهو يكشف عن ذلك لدن وصوله ، أما إذا أظهر اليهود شرا فهو يستطيـــع أن يدينهم به ويقضي على مؤامراتهم كما حدث في المستقبل ، وقد حققت هذه السياسة ثمارها وأسلم بعض رجالاتهم وأحبارهم من مثل عبد الله بن سلام . إن سياسة الوفاق مع اليهود في أول العهد المدني ستضمن ناحيتين يحرص عليهما رسول الله ، الأولى : حسن سير المد الإسلامي بين القبائل العربية ، والثانية ضمان عدم تحالف اليهود مع قريش ضده ، وهذا كله دفـــع رسول الله إلى توقيع صحيفة كتبها مع اليهود نظم فيها شئون الدفاع عن المدينة وما يستلزم هذا من مال ورجال ، وضمن لهم حرية العقيدة وأقرهم على أموالهم . وقد حدث كل أولئك ورسول الله يتصرف من منطق القوة فكان صاحب مفتاح التحرك من جهة ولم يسلبه اليهود شيئا من جهة ثانية .

أما المنافقون فقد كان لهم كيان لا بأس به في المجتمع المدني ، وظاهرة وجودهم في أي مجتمع إسلامي أمر طبيعي وذلك لأن بعض الناس قد تصطدم مصالحهم الشخصية بالدعوة التي تذوب فيها المصالح الأخرى ، ثم يكون لدى الفرد مرض في قلبه حيث لا يتمثل المعطيات الإسلامية في أعماقه . فعبد الله بن أبي بن سلول كان يجهز نفسه ليلبس اكليل الخرز الذي أعده له الأوس والخزرج قبيل البعثة ، وحين قوي شأن رسول الله ﷺ وسيطر على الموقف في المدينة اضطر هذا المنافق أن يقبل على مضض بالأمر الواقع رتزعم طائفة النفاق التي تبطن غير ما تظهر ، وهذه الفئة لا يملك رسول الله أن يحاربها إلا إذا أظهرت عداوتها .

أيها الإخوان :

تلكم بعض الدروس والمعاني اقتبستها من قراءة لي في الهجرة النبوية وأحداثها . وينبغي أن نعيد ارتباطنا مع السيرة النبوية على ما ذكرته في المقدمة أى نقرأها لننفذها ونستفيد منها لأحداث اليوم . لا لنتمتع بها ونقول : أين نحن من هؤلاء ؟ وتلك نظرة خاطئة كل الخطأ . إن الإعتقاد بأننا نختلف عن هؤلاء يجعل من الذخيرة الإسلامية التى نملكها شيئا معطلا . وينبغي لنا أن نقول : هم رجال ونحن رجال والمنهج الذي صنعهم وكون منهم ما كون موجود بين ظهرانينا . فلا نخلد إلى الأرض ونعيش حياة الترف والخمول ثم نقول نحن مسلمون .

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا إتباعه .

وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .
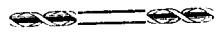
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .